• الشعراء الشبان ظهروا في عصر العمالقة وهم يتعاشون على فتات موائدهم .. • شعر محمود درويش يمثل البورجوازية الوطنية الفلسطينية • أدب الارض المحتلة هو أدب احتجاج وليس أدب مقاومة •

البيّاتي ومواقفه من الأدب والثورة..

يشن عبد الوهاب البياتي حملة على كل شيء تقريبا في هذا الحديث مع « الهدف » الذي نريده حوارا ، ولو عنيفا ، مع الشعراء والكتاب الذين يقولون ويقال عنهم ، انهم ثوريون وتقدميون . ما مدى صحة ذلك ؟ كم عمقه ؟ كيف يفهمون دورهم وكيف يفهمون دور غيرهم ؟ هل هي ثورية حقا اساليب فهمهم لدورهم الثوري ؟ ان هذه الاسئلة مهمة ، وعلى ضوء اجوبتها يكتشف قارئنا من هم الرواد .

وهذا اللقاء اجراه (م .) مع عبد الوهاب البياتي .

« الهدف »

ـ هل بقي في تقديركم من قيمة لشعر الرواد غير قيمتهم التاريخية ، بصفتهم ممثلين لمرحلة من مراحل شعرنا ؟

□ لو سئل المتنبي في عصره مثل هذا السؤال، لعلت وجهه علائم الدهشة واعترته الحيرة . فلا ادري عن اي رواد نتحدث الان . هل هم الرواد الذين ظهروا في العصر الجاهلي او العصر العباسي؟ او عن رواد حركة شعرية جديدة ظهرت في اواخر الاربعينات ، ورفعت قامتها في بداية الستينات؟ اننا لا نزال نعيش في هذه المرحلة التي لم تبدا بعد تماما ، كي نقول انها ادت دورها التاريخي، خاصة ونحن نتحدث عن الشعر . فهناك عصور طويلة من القحط الشعري في تاريخ امم مختلفة، بدءا بالاغريق وانتهاء بالعرب ، كما ان ظهور شعراء كبار ، لا يعني ان هذا الظهور تتحكم به ظواهر موضوعية حاسمة مثل ظاهرة التواليات العددية . ولو اختلفنا على ان الشعر الحقيقي يكتب لكي يبقى ، وانه ليس ظرفيا لكي ينتهي بين عشية وضحاها ، لاهلنا التراب على المتنبي والمعري وشكسبير وحتى اليوت . ان غياب اليوت مثلا في الاداب الانكليزية ترك فراغا هائلا في هذه الاداب ، لم يملاه قامة اي شاعر بعده . كما ان صعود الحركات لا يعني انها ستهبط . ومن الذي اعطى الحق او وضع نظرية تفيد بان بعض الابناء يرثون بالضرورة الاباء ؟ ان بعض الادباء عمي خرس ، او يولدون منقطعي الجذور والاصول .

وفي رايي ان شعر الرواد : السياب ، ادونيس ، حاوي وغيرهم ، سيظل يلقي ظله على الـ ٥٠ سنة القادمة . ان ظهور شعراء كبار ليس ظاهرة ساذجة ، او يمكن ان تظهر وتتجلى الى العيان دائما ، والمعروف ان الشعراء كلما تقدموا في تجاربهم الشعرية واعمارهم ، كلما نضجوا واكتنزوا اكثر ، ولم يقل احد ان الرواد الحقيقيين قد انتهوا . فلا تزال كتبهم الشعرية طعاما ونهبا لكل الشباب الذين جاءوا بعدهم ، ممن يسمون بالجيل الطالع . اعتقد ان من سوء حظ بعض الشعراء « وقد نكون بعضهم مبدعا » انهم يظهرون في عصور العمالقة ، وانهم لا يجدون سبيلهم الى الظهور ، والى مد قاماتهم على طولها ، فيستعيضون عن ذلك بالضوضاء ؛ وتقسيم الازمان والاجيال . اعتبار ان كل ٣ او ٤ سنوات تمثل جيلا . وهذا تقسيم كاريكاتوري لم ار له مثيلا في الاداب العالمية ، القديمة او الحديثة .

امر اخر اود اضافته : ان القادم الجديد المبدع لا يحتاج الى ضوضاء والى تقسيم الاجيال ، حتى يلحق بالمبدعين . عليه ان يدخل بسلام . اما من لم تنبت اجنحته بعد ، ولا تسعفه الموهبة للتحليق في ذرى الابداع الشعري لمعانقة الهة الشعر المتربعة فوق قمة الاولمب ، فلا بد لهم من ضوضاء وما اشبه ، لانهم يعتقدون ان الشعراء « اي شعراء » يستطيعون ان يدخلوا الى مملكة الرب افواجا .

ان حسم الصراع في القضايا الفنية الابداعية، لا يمكن ان يتم بصورة عفوية وفورية . كما في بعض القضايا السياسية عندما نخرج بتظاهرة فنشجب هذا ونؤيد ذاك . انها عملية معقدة طويلة ، وليست حكرا على احد .

جملة القول ان الرواد نالوا مكانتهم عن جدارة واستحقاق ، ولم يتوصلوا لها عن طريق التظاهرات الشعرية الكاذبة او الافتئات او الادعاءات الفارغة . واعتقد ان قسما او بعضا من الشعراء الذين ظهروا بعد الرواد مباشرة قد بوأوا مكانة تتناسب وطول قاماتهم . وهذا لا يعني انهم قد انهوا دور الرواد وحلوا مكانهم ، فلا توجد مثل هذه الظاهرة في اداب اية امة . استطيع القول انهم ـ الشبان ـ لم يشكلوا اضافة جديدة لما ابدعه جيل الرواد . فهم لا زالوا يتعاشون على فتات موائدهم او عطاياهم الكريمة . ولعل العقلية القبلية لا زالت مسيطرة على الاذهان الاخوة والاستجداء من الجيل الجديد.

يعتقدون انهم لا يمكنهم شق طريقهم الا بازاحة الكبار الذين يقفون امامهم . لكن العالم يتسع لاكثر من خمسة او ستة شعراء . ثم ان الشعراء يختلفون باختلاف مدارسهم الشعرية ورؤيتهم للكون وتصورهم الشعري . ان الشعراء ليسوا نسخا مكرورة من كتاب حتى يمكن الاستغناء عن جميعهم او الاكتفاء بواحد او اثنين .

ـ يبدو ان شاعرنا يرى بأن نفي الشعراء الشبان هي الطريقة المثلى لتأكيد الشعراء الرواد !

□ اضيف الى ما قلته ان الشعراء الرواد لا يكونون حزبا سياسيا او مدرسة شعرية واحدة . انهم يقفون كما تقف الاشجار العالية في غابة سامقة ، وقد تصيب بعض الاشجار بعض الكوارث ، كان تداهمها صاعقة فتحرقها وتسقط ميتة ، كما اصاب السياب . وبعضهم يحل بهم مثلما يحل بالبشر ايضا كان يصمتون ويؤثرون السلامة ، وهذا من حقهم . ولكن بعضهم لا يزال يواصل مسيرته ، ويقدم لمائدة الشعرية للقراء.

ـ هل تحدثنا الان عن القيمة التي تمثلها مسيرة الشعراء الباقين على عطائهم ؟ صلاح عبد الصبور اصبح ينحو منحى صوفيا ، وحاوي كما قلت آثر السلامة بالصمت ، اما ادونيس فلا زال يمضي في اجتهاده الشعري الملفت ، اذ لجأ اخيرا الى تحطيم قواعد الشعر المتعارف عليها ، داعيا الى لغة جديدة والى قصيدة تركيبية متعددة الاصوات ...

□ لا نزال نتكلم بلغة القبيلة . فلعل حاوي قد كتب بعض الاعمال ولم ينشرها لاسبابه الخاصة . فلا ادري هل ان النشر المستمر هو لقياس ؟ ان الشاعر / زال يحيا ويعيش . ان حاوي لا زال يحمل في قلبه كثيرا من العطايا التي سيقدمها .

اما عبد الصبور فهو حر في اختيار الاتجاه الصوفي ، ولا نملك ان نفرض عليه ان يكتب على هوانا ومزاجنا . ما نستطيع ان نطالبه به هو ان يقدم لنا عطاء شعريا ، جديدا وحقيقيا . فمسالة المضمون متروكة لاختيار الشاعر الحر . لكن علينا بالطبع ان نحاكم النتائج الشعرية والفكرية لهذا الاتجاه او ذاك . وكذلك الامر بالنسبة لادونيس ، فلا نملك ان نلومه لانه فعل كذا وكذا . ولا نستطيع اتهامه بالانتهاء لانه لجأ الى اتجاهه الجديد . كل همنا ان نتساءل على مقدار قيمة هذه التجارب الجديدة من العمق والاصالة والابداع .

ـ لا احد ينكر ضرورة واهمية التنوع في المدارس . ولا اختلف معك بان الشاعر حر في اختيار اشكاله ومضمونه . لكن ما اريد قوله انه يظل من حقنا والطبيعي من واجبنا ان نعبر عن موقف لنا تجاه هذه المدارس او بعضها . هل ترى في الاتجاه الصوفي الذي يقوده عبد الصبور ملامح ثورية ترافق الحماس الذي نعيشه والمحنة التي نعانيها ؟

□ من حق القارىء الذي يحمل وجهة نظر ايديولوجية في الحياة والفن والفكر ان يطالب الفنان بوجهة معينة تخدم افكار القارىء وقناعاته . لكن الفنان يبقى في النهاية حرا في اختيار طريقه .

اتذكر ان جدانوف قال مرة عندما كان رئيسا لاتحاد الكتاب ، عن الشاعرة العظيمة انا اخماتوفا وهو في سبيل مهاجمتها والتشهير بها. ان اشعارها تتردد بين المخدع والكنيسة ، وكان من حق جدانوف ان يتخذ مثل هذا الراي ، ولكن لم يكن من حقه ان يعمم هذا الراي على جميع الناس ويحرمهم من اشعار اخماتوفا . فاذا كنا نحمل ايديولوجية معينة ، فمن حقنا ان نختار شعراءنا من نفس النوعية او الاتجاه ، وعلينا ان ننقد ونرفض الاتجاه الاخر ، ولكن ليس من حقنا حرمانهم من حرية التعبير . والى ذلك فاني اعتقد ان الشاعر العظيم قد يستطيع ان يحلق بشعره الانساني وبحريته الخلاقة فوق كل الاتجاهات ، كما فعل ذلك شكسبير ولوركا مثلا . ان شعراء القبيلة هم وحدهم الذين نختلف معهم . اما شعراء التجربة الكونية فاننا لا نعتقد اننا نختلف معهم في شيء . والاتجاه الصوفي بحد ذاته ليس شرا ، فالكثير من الادباء التقدميين المعاصرين لا يخلو شعرهم من اتجاه او مسحة صوفية انسانية عميقة . والا ماذا نقول في اشعار بابلو نيرودا التي تتسربل بغلالة صوفية عميقة تحكي عن الموت والحب والثورة ؟

وعلى هامش ذلك اعتقد انه ليس هناك افكار شريرة او خيرة بحد ذاتها .. وانما يجعل تلك الافكار شريرة او خيرة هم البشر الذين يستخدمونها ، ان الافكار التي تتبنى نضال الانسان في سبيل الحرية والكرامة لا تختلف في افاقها . لذا اعتقد انه يجب ان نبحث عما يخفي صلاح عبد الصبور وراء هذا الاتجاه ، ونوغل معه في طريق تجربته حتى نكتشف الحقيقة ، ونكون اقرب الى الحكم الموضوعي . اما بالنسبة لرائد اخر هو ادونيس ، لقد قلت في عديد من المقالات الصحفية التي نشرت لي ، وكنت اقصد بهذه المقولة ولم اكن انوي تجريحه او الاساءة اليه ، وانما الرد على كثير مما كتب من احاديث عن الثورة في الشعر . قلت انه لا يمكن احداث ثورة في اللغة والشكل الشعري دون ارتباط حقيقي وعضوي بالثورة الاجتماعية والسياسية ودون وجود حتمية تاريخية ترتبط بها مثل هذه الثورة . اما الثورات المثالية الشكلية فهي لا تقدم او تؤخر في رصيد الثورة الشعرية الحقيقية . ان خلافي معه يبدا وينتهي من هذه النقطة فقط . اما اراؤه الاخرى ، فاني لا اختلف معه حولها وخاصة فيما يتعلق بالتكنيك الشعري . غير ان كثيرا من افكاره التي يكتبها لا تنطبق على شعره ، بل هي تعبير عن طموح لشاعر كبير يود ان يضيف شيئا الى ما كتب عن الشعر . وقد صادف ان جرت دعاواه النظرية كثيرا من الشعراء الشبان للوقوع في فخاخ كلماته ، والغريب انه هو نجا بنفسه من هذه الفخاخ ، بينما وقع غيره . مثله مثل الساحر الذي مر يوما بقرية نافخا بمزماره فتجمع حوله اطفال القرية وساروا وراءه ، فاختفى بهم وعاد هو الى الظهور من دونهم .

انني اوى ادونيس ثوريا في شعره لا في ما يكتبه عن الشعر . ولذلك احمله مسؤولية ضياع كثير من المواهب الشابة ، التي انصرفت عن قراءة التراث ، واهملت امهات الكتب العالمية ، واكتفت بما نكتبه نحن لها ، بحيث جعلته انجيلا لها ومصدرا ثقافيا وحيدا .

وعودا على الشعراء الشبان اقول ان من الغريب كون تيار منهم يلجا الى تقليد الاتجاه الدادي في الشعر ، وكلنا يعرف ان هذا الاتجاه ظهر بين الحربين العالميتين كثورة مضادة للسريالية التي كانت اكثر ارتباطا بالماركسية وبالثورة والعلم (ماركس ، فرويد) .

ان الدادية فشلت حتى وهي في عنفوان شبابها، ولم تخلف وراءها شيئا على الاطلاق ، سوى الذكرى البائسة . والظاهرة الاصيلة لا يمكن لها ان تتراجع ابدا . معنى هذا ان تقليد بعض الشبان وتتلمذهم لا تتم عن طريق الارتباط بتاريخ ادبهم القوي والادب الانساني والعالمي ، وانما تتم عن طريق الارتباط بالمدارس المنقرضة الشاذة التي ماتت وهي في المهد ، او عن طريق الارتباط بالاتجاهات المنحرفة الهامشية .

ـ ان تضع ادب فلسطين المحتلة على خريطة الشعر العربي الراهن ؟

□ انني اتفق مع غالي شكري بان ادب الارض المحتلة هو ادب معارضة واحتجاج ، وليس ادب مقاومة . واتفق مع ادونيس بان ذلك الشعر هو امتداد للشعر العربي الوطني الذي امتد خلال الخمسينات . انه شعر احتجاج ما دام ينشر ويكتب تحت سمع وبصر القانون الاسرائيلي . وان هناك سلطات تجيز هذا الادب بل وحتى تسمح بتصديره مكتوبا الى الخارج ، بينما شعر المقاومة هو الذي ينبثق من داخل المقاومة ، من داخل الثورة الشعبية المسلحة نفسها . بحيث ان عقوبة الشاعر تكون نفس عقوبة المقاتل الثوري. وانا استغرب كيف يمكن ان يسمى الشاعر مقاوما اذا كان ينظر الى الثورة من الخنادق البعيدة ومن ناظوره المكبر لكي يحصي عدد القتلى ؟

تبقى الان ان يتخذ شعر فلسطين المحتلة ، حجمه الطبيعي والحقيقي . انه في جوهره ثورة رومانسية لبعض شعراء البورجوازية الصغيرة الذين ينتمون الى الاحزاب الشرعية القانونية . كما ان هذه الاشعار تضفي ـ دون قصد من اصحابها ـ غلالة مزيفة من الديمقراطية على وجه اسرائيل العجوز . انني بذلك لا اقصد طمس البعد الوطني الصادق والنبيل في اشعارهم، وانما اردت فقط ان اشخص مواقعهم من الثورة الفلسطينية العربية ، التي هي حلم جماهيرنا الشاغل .

معنى هذا ، اكرر ، ان « شعر المقاومة » هو امتداد للشعر الوطني القومي ، وان الطبقة الثورية الكادحة الفلسطينية لم تنجب بعد شعراءها ، وانما ستنجبهم من خلال لهيب حرب التحرير التي سيخوضها الشعب الفلسطيني .

لقد سبق لي ان عبرت عن رايي هذا في القاهرة قبل ان تظهر اسماء : درويش وغيره بعامين او ثلاثة . وكنت قرات بعض اشعارهم عندما كنت مقيما في موسكو . وقلت ان هذا الشعر يمثل الوجه البورجوازي الوطني للشعب الفلسطيني . ومن يراقب سلوك درويش الذي كان ابرز ممثلي شعر الارض المحتلة ، وهو متنقل من الارض المحتلة الى موسكو الى العالم العربي، يدرك ما اعنيه . فها هو ابرز ممثليهم ينتقل من مكاتب الرفض والاحتجاج ، لا الى خنادق الثورة ، ولا الى المواقع النظرية والمواقف الجذرية للثورة ، لقد كتب في اول ايام وصوله يهاجم بعض الفصائل الوطنية داخل الارض المحتلة لانها تتبنى فكرة الكفاح المسلح ، واتهم ايضا بانهم يقولون ما لا يفعلون هذا دون ان نتحدث عن « هموم » النشر التي ارقته ، وتكاليف هذا النشر واثمانه . بحيث انني لم اقرا له شيئا فيما سوى احاديثه عن الناشرين كانه لم يات الا لكي يجني او يحصد ما زرع .

ان ما اصاب محمود درويش من مجد ، هو من مجد شعبه الذي يقاتل في اقسى واشنع ظروف القهر والابادة ... لا من شاعريته التي لا تزال تحبو في مدارج الكمال والصعود .

عبد الوهاب البياتي

قصيدة جديدة

من كتاب بعض المحكومين بالاعدام بعد سقوط كومونة باريس

(١)

وُلِدتُ في عصر الخيانات وفي ازمنة العذاب والثورات
كان ابي عبدا على محراثه مات وكنت شاعرا جوال
اصطاد في طفولتي فراشة القمر
فوق سطوح مدن النحاس .
ادق في غيابها الاجراس
احفر في قصائدي نفق
الى سماء قريتي الزرقاء
مهاجرا مع الطيور ولغات كتب الثوار .
ولدت ماخوذا وكانت قدمي الريح وقلبي في يد الاقدار
مطرقة حمراء .
رايت في تكهن الغيب وفي طوالع النجوم
وفي تصاريف الليالي : طائرا مفترسا ياتي مع الفجر ، وينقض على القطيع
ممزقا اوصال هذي المدن الشوهاء في عاصفة الرعد وفي مخالب الحديد
وغارسا منقاره في لحمها المنتون
وباسطا جناحه فوق حطام العالم القديم .
رايت : لصوص ملوك العالم الدعار
واوجه الطغاة
مذعورة تحاصر الثوار
وطائر الرعد بلا جناح
يطلق صيحة ويهوي ميتا بطعنة من خنجر مسموم

(٢)

كان ابي عبدا على محراثه مات ولكني مقصلة الجلاد
ستشهدنا اموت .

(٣)

لترتفع رايات كومونة باريس
لينهض فقراء الارض من جديد

(٤)

دم على الكنائس القوطية الحمراء
دم على الاجراس
دم على قصائد الامطار واللوحات
دم على دفاتر الاطفال
دم على باريس
يهطل مدرارا على بيوتها ويسقط الجليد

(٥)

ألك في قصائدي الحصار
عن هذه المدينة المذبوحة البالية الاطمار

(٦)

ثانية سيقبل المخلص المسيح
لكنه في هذه المرة ياتي من بلاد الليل والثلج ومن وراء هذا الحائط المرصوص
ها انذا اراه في الغيب وفي بوابة المستقبل البعيد
يحمل سيفا بيد وغصن زيتون باخرى ، باسطا صليبه فوق حطام العالم القديم

(٧)

لتحترق باريس
فحبنا جرح وهذا الدم في سمائها نبوءة الحريق

(٨)

دس لي الحارس في السجن كتابا اسود الغلاف
كان بلا عنوان
يحكي عن القديس اوغسطين
ومعجزات طائر الرعد وآيات نبي غامض في الصين
خباته تحت قميصي وشكرت الحارس الغارق في الصمت وفي معطفه المنسول
جفت دموعي قبل ان تولد في العيون .
كتبت في حاشية الكتاب
رسالة لامراة مجهولة
احببتها في زمن الطفولة
قلت لها : ايتها البحيرة المسكونة
بكلمات الحب والنجوم والاسماك
قلت لها : الوداع !
كتبت في دفاتر الموت لها تميمة
مقبلا عيونها الخضراء
قلت لها ، وانقطع الزمن
وهبط الملاك في باريس
ونهض الموتى من القبور
يبتهلون لمسيح العالم الجديد
ينتظرون القادم المجهول من قصائد الحب ومن اجنحة الربيع
متوجا بالنار والصقيع .
قلت ولكن يد القديس اوغسطين
باركت الجنين
في بطن من احببتها في زمن الطفولة .
كتبت في دفاتر الموت لها رسالة طويلة
تحكي عن العذاب والحضور
ومعجزات النور

(٩)

لترتفع رايات كومونة باريس
لينهض فقراء الارض من جديد

(١٠)

كان الفراق الموت
ياتي مع الفجر ليستخرج من صندوق هذا الجسد الجواهر
والامل المسافر
وشعلة الحياة
ياتي مع الجلاد
يحمل ميراث عصور احرقت طغاتها صواعق الميلاد
وقاهر الطبيعة الانسان
فلتحملي اسماه !
تمشي على فراشة البرق الى الحقول والغابات
ولتنثريني في الضحى رماد
في مدن الجوع وفي ازمنة العذاب والثورات
اولد ـ من خلال هذا العالم الواعد بالطوفان ـ من جديد
مع الملايين التي عذبها انتظارها الطويل
من اجل ان تنهض فوق هذه المدينة الشهيدة
كومونة جديدة